قصة آية

30

من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل

بقلم : د. وجيه يعقوب السيد
إشراف : أ. حمدى مصطفى

طباعة ونشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع



قالَ (تعالَى) : ﴿ لَيْسُواْ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴾. [سورة آل عمران : ١١٣-١١٥]

هُنَاكَ أَكْثَرُ مِنْ قِصَّةٍ وَأَكْثَرُ مِنْ سَبَبٍ فِي نُزُولِ هَذِهِ الآياتِ ، وَإِنْ كَانَتْ كُلُّهَا متقاربة ومتشابهةً .

فَقَدْ رُوِيَ أَنَّ عبدَ اللهِ بن سَلامٍ وثَعلبةَ بن

سَعيةَ وأُسَيْدَ بنَ سَعيةَ وأسَدَ بنَ عُبَيْد ،
وهُمْ مِنَ اليَهُودِ ، أَسْلَمُوا وَحَسُنَ
إسْلامُهُمْ.

وَأَرَادَ عَبْدُ اللهِ بنُ سَلَامٍ أَنْ يُثْبِتَ للرَّسُولِ ﷺ
والمسلمين أنَّ اليهودَ أهلُ غدرٍ وخيانةٍ ،
وأَنَّهُمْ يَشْهَدُونَ الزُّورَ ولا يقولُونَ الحَقَّ .

قَالَ عَبْدُ اللهِ بنُ سَلَامٍ :

- يَا رَسُولَ اللهِ ، إِنَّ اليَهُودَ قومٌ بُهْتٍ
وَزُورٍ ، وَإِذَا أردتَ أَنْ تَتَأكَّدَ فاسْأَلْهم عنِّى
قبلَ أن يَعْرِفُوا بنبأ إسْلامى ، ثُمَّ أعْلِمْهُمْ
بِأَنَّنى أسلَمْتُ ، واسْمَعْ لما يقولُونه عندئذٍ .

وخَرَجَ الرسولُ ﷺ إِلَى اليهود وقَالَ :

- ما تقولون فِي عَبْدِ الله بنِ سَلاَمٍ ؟

فقالُوا جميعًا :

- إِنَّهُ عالمٌ ابنُ عالمٍ وَرِثَ العِلْمَ كابِراً عن كابِرٍ ، لهُ مكانةٌ بَيْنَنَا لا يصلُ إِلَيْها أَحَدٌ .

فَقَال ﷺ :

- أَرَأَيْتُم إِنْ أَسْلم ، هَلْ تُسْلمون ؟

فقالُوا :

أَعَاذَهُ اللَّهُ أَنْ يُسْلِمَ ، إِنَّه رجلٌ عاقلٌ لا يمكن أن يفعلَ ذلك .

وكانَ عَبْدُ اللهِ بنُ سَلاَمٍ واقفًا خلفَ

حائطٍ يَسْمَعُ هذا الحوارَ فخرج إِلَى اليهودِ وَقَالَ :

- يا معشرَ يهودٍ ، أُشْهِدُكُمْ أَنِّى أَسْلَمْتُ وآمنتُ برسولِ الله ﷺ .

ولم يَكَد اليَهودُ يَسْمَعُونَ ذلك حتى انقلبَ موقفُهم إلى الضِّدِّ ، فَقَالوا فِى غضبٍ :

- ومَنْ أَنْتَ ؟ إِنَّكَ مِنْ شِرارِنا ، وَجَاهِلٌ لا ذكرَ لكَ ، وقدْ أَحْبَبْتَ أنْ تَلْفِتَ الأَنْظارَ إِليك .

وابتسمَ عَبْدُ اللهِ بنُ سَلامٍ وقَالَ للرَّسُول ﷺ :

- ألم أقُلْ لك يَا رسُولَ اللَّه ؟ !

وانطلقَ اليـهُودُ إِلَى علمائِهِم وأحبـارِهم وقَالُوا لهم :

- لقد آمن عَـبْدُ الله بنُ سَلاَمٍ وثَعلَبَةُ بنُ سعيةَ وأَخُوه أُسَيْدٌ وأسَدُ بنُ عُبَيْدٍ !

فَقَال أَحْبَارُ اليهودِ :

- إِنَّهُم لَمْ يؤْمِنوا بدِين مُحَمَّـد إلا لأَنَّهم مِنْ شِرارِنا ، ولو كَانُوا من أخْيَارِنَا لما تركُوا دينَ اللَّهِ .

وَذَهَبُوا عَلَى الفَوْرِ إلَى عَبْد الله بنِ سَلاَمَ وأصحابِه لِكَي يُقْنِعُوهُم بالعودةِ إِلَى دِينِهِم

وتركِ دينِ الإسلامِ ، فقالَ عبْدُ اللهِ

ابنُ سَلَامٍ وأصحابُه :

- لقد آمنَّا عن اقتناعٍ ، ونَحمَدُ اللَّهَ الذى

هَدانَا لهذَا وما كُنَّا لِنهتدِىَ لوْلا أَنْ هدانا

اللَّهُ ، ولولا أنَّ اللَّهَ يُحبُّنا ويحبُّ لنا الخيرَ

لما هَدَانَا إلَى الإسْلامِ .

فَقَالَ أَحْبَارُ الْيَهُودِ :

لَقَدْ خَسِرْتُم حِينَ اسْتَبْدَلْتُم بِدِينِكُمْ دِيناً

آخَرَ .

فأنْزَلَ اللَّهُ (تعالى) قَوْلَهُ :

﴿ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾

[سورة آل عمران : ١١٣]

وَبذَلكَ فَرَّقَ اللَّهُ بيَنَ أَهْلِ الكِتَابِ الَّذينَ دَخَلُوا فِى الإِسْلامِ ، وَأَهْلِ الكِتَابِ الَّذينَ بَقُوا عَلَى دِينِهِمْ ؛ حَيثُ امْتَدَحَ اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وامْتَدَحَ مَوْقِفَهُمْ وَعِبَادَتَهُمْ ، بَيْنَمَا ذَمَّ الْمُصِرِّينَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ عَلَى الْمَعْصِيَةِ وَإِيذاءِ النَّبِىِّ ﷺ .

وَرُوِىَ فِى سَبَبِ نُزُولِ هَذِهِ الآيَاتِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَخَّرَ ذَاتَ لَيْلَةٍ صَلاةَ الْعِشَاءِ ، فَقَالَ بعضُ الصَّحَابَةِ لِبَعْضِهِمْ :

- يَجِبُ أَنْ نَقضِىَ الْوَقْتَ فِى ذِكْرِ اللَّهِ

وَعِبَادَتِهِ حَتَّى يَأْتِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ .

فَجَلَسَ فَرِيقٌ يَذْكُرُونَ اللَّهَ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ ، وَقَامَ فَرِيقٌ آخَرُ يُصَلُّونَ لِلَّهِ وَيَرْكَعُونَ وَيَسْجُدُونَ .

وَلَمَّا دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَسْجِدَ ، وَرَأَى الْمُسْلِمِينَ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ ، سَرَّهُ ذَلِكَ وَحَمِدَ اللَّهَ (تَعَالَى) عَلَى تَوْفِيقِهِ الْمُسْلِمِينَ لِذِكْرِهِ .

وَنَظَرَ الرَّسُولُ ﷺ إِلَى الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ فَقَالَ لَهُم :

- إِنَّه لَيْسَ مِنْ أهْلِ الأَدْيَانِ أَحَـدٌ يَذْكُـرُ اللَّهَ (تَعَالَى) فِى هَذِهِ السَّاعَةِ غَيْرَكُمْ.

فَحَمِدَ الْمُسْلِمُونَ رَبَّهُمْ عَلَى ذَلِكَ وأَثْنَوْا عَلَيْهِ ثَنَاءً حَسَنًا.

وَعِنْدَمَا انْتَهَى الْمُسْلِمُونَ مِنْ صَلاتِهِمْ ذَهَبَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَبَشَّرَهُمْ بِقَوْلِهِ:

-إِنَّهُ لاَ يُصَلِّى هَذِهِ الصَّلاَةَ أَحَدٌ مِنْ أهْلِ الْكِتَابِ.

فَحَمِدَ الْمُسْلِمُونَ اللَّهَ (عَزَّ وَجَلَّ) عَلَى ذَلِكَ وَأَثْنَوا عَلَيْهِ ثَنَاءً حَسَنًا.

فَأنْزَلَ اللَّهُ (تَعَالَى) عَلَى نَبيِّه :

﴿ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ
ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ
وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ
وَيُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾
وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ
بِٱلْمُتَّقِينَ ﴾ . [سورة آل عمران : ١١٣-١١٥]

إنَّ هَذهِ الآيَاتِ الْكَرِيمَةَ تُعَدُّ إنْصَافًا للْقلَّة الصَّادقَةِ الْمُؤْمِنَةِ من أهْلِ الْكِتَابِ ، حَيْثُ يَسْتَثْنِيهِمُ اللَّهُ (تَعَالَى) وَيُقَرِّرُ أَنَّهُمْ لَيْسُوا كَبَاقِي أَهْلِ الْكِتَابِ ، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى إنْصَافِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَعَدْلِهِ وَمَوْضُوعِيَّتِهِ.

فَقَدْ أَنصَفَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَنْ آمَنَ مِنْ أَهْلِ

الْكِتَابِ إِيمَانًا صَادِقًا عَمِيقًا ، إِنَّهُمْ قِلَّةٌ مُؤْمِنَةٌ مُسْتَقِيمَةٌ عَلَى الْهُدَى ، قَائِمَةٌ بِالْعِبَادَةِ ، مُؤْمِنَةٌ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، تُؤَدِّي الْفُرُوضَ الَّتِي فَرَضَهَا اللَّهُ عَلَيْهَا ، فَتُصَلِّي الصَّلَوَاتِ الْمَكْتُوبَةَ ، وَتَدْعُو إِلَى اللَّهِ وَتَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ، وَلِذَلِكَ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَنْصَفَهُمْ ، وَلَنْ يُضَيِّعَ عَلَيْهِمْ مَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ . ﴿ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ ﴾ .

فَاللَّهُ (تَعَالَى) لَنْ يُضَيِّعَ صَالِحَ أَعْمَالِهِمْ ، وَلَنْ تَذْهَبَ أَعمالُهُم سُدى ، بَلْ سَيَجْزِيهِمْ عَلَيْهَا وَيُكَافِئُهُمْ بِهَا ﴿ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ الَّذِينَ يَشْمَلُهُمُ اللَّهُ (تَعَالَى) بِرَحْمَتِهِ وَعَفْوِهِ.

إِنَّ الإِسْلاَمَ هُوَ دِينُ الْعَدلِ وَالإِنْصَافِ ، وَهُوَ دِينٌ لاَ يَقْبَلُ الظُّلْمَ ؛ وَلِذَلِكَ يُعْطِي لِكُلِّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ.

فَإِذَا كَانَ الْقُرْآنُ قَدْ تَحَدَّثَ عَنِ الْيَهُودِ عَلَى اعْتِبَارِ أَنَّهُمْ أَعْدَاءُ الإِسْلاَمِ ، وَرَسَمَ

لَهُمْ صُورَةً قَاتِمَةً تُعَبِّرُ عَنْ حَقِيقَةِ أَحْقَادِهِمْ وَكَرَاهِيَتِهِمْ لِلإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ ، فَإِنَّهُ قَدْ أَنْصَفَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ فِي إِيمَانِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ.

وَقَدْ أَمَرَنَا اللَّهُ (تَعَالَى) بِمُرَاعَاةِ الإِنْصَافِ فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ حَتَّى مَعَ أَعْدَائِنَا ؛ لأَنَّ هَذَا أَقْرَبُ لِلَّهِ الْعَدْلِ الْمُقْسِطِ. قَالَ (تَعَالَى) :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾. [سورة المائدة : ٨]

وقالَ (تَعالَى) :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ ﴾.

[سورة النساء :١٣٥]

وَلاَ أَعْتَقِدُ أنَّ هُنَاكَ قَوَاعِدَ وقَوَانِينَ بشَرِيَّةً تُرَاعِي هَذه الأَبْعَادَ ، وتَأمُرُ بالْعَدْلِ الْمُطْلَقِ كَمَا يَأْمُرُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ.

فَالْقَوانِينُ الْبَشَرِيَّةُ تَقُولُ : الْغَايَةُ تُبَرِّرُ الْوَسِيلَةَ ، وَالضَّرُورَاتُ تُبِيحُ الْمَحْظُورَاتِ ، بَيْنَمَا الإِسْلاَمُ لاَ يُبَرِّرُ الْغَدْرَ وَلاَ الْخِيَانَةَ وَلاَ يَخْتَلِقُ الأَعْذَارَ وَالْحُجَجَ لِمَنْ يَقُومُ بِذَلِكَ.

إِنَّهُ دِينُ اللَّهِ الَّذِى ارْتَضَاهُ لِلْبَشَرِيَّةِ لِكَىْ يُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَيَهْدِيَهُمْ إِلَى الْحَقِّ بِإِذْنِ اللَّهِ.

- أَدْعُوكَ رَبِّ كَمَا أَمَرْتَ تَضَرُّعًا

فَإِذَا رَدَدْتَ يَدِى فَمَنْ ذَا يَرْحَمُ

مَا لِى إِلَيْكَ وَسِيلَةٌ إِلاَّ الرَّجَا

وَجَمِيلُ عَفْوِكَ ، ثُمَّ أَنِّى مُسْلِمُ

رقم الإيداع : ٢٠٠١/١٤٠٢٠

الترقيم الدولى : ٨-٦٦١-٢٦٦-٩٧٧